هشام عطية أحمد السيسي، السلطان غياث الدين بلَبن وحكمه دولة المماليك الإسلامية بالهند (٦٦٤-٦٨٦هـ/ ١٢٦٥-١٢٨٧م)، العدد الثاني، ص٩٣- ١٢٦.

السلطان غياث الدين بَلَبَن وحكمه دولة المماليك الإسلامية بالهند (٦٦٤-٦٨٦هـ/ ١٢٦٥-١٢٨٧م)

د. هشام عطية أحمد السيسي
جامعة أم القرى – السعودية

الملخص:

يتناول البحث سيرة السلطان غياث الدين بَلَبَن وحكمه دولة المماليك الإسلامية بالهند، بدءًا من خروجه من موطنه بتركستان الغربية وبيعه ببغداد حتى وصوله الهند واشتغاله بوظيفة ساقي عند سلطان دولة المماليك في ذلك الوقت ألتمش، ثم تدرج بلبن في المناصب بجده واجتهاده حتى وصوله منصب السلطنة، ثم اتجه الحديث عن أحوال الدولة الداخلية والخارجية في عهده، ومن أهمها إقرار الأمن في ربوع الدولة، وإيقاف الخطر المغولي الذي أولاه بلبن جل اهتمامه، بالإضافة للعلاقات الحسنة التي ربطت بلبن بالخلافة العباسية. ويختتم البحث بذكر نبذة عن المظاهر الحضارية في عهد بلبن وتميزها، ومنها النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: السلطان غياث الدين بلبن؛ دولة المماليك؛ الهند؛ الخطر المغولي.

Sultan Ghayāth ad-Dīn Balaban and his Rule in the Islamic Mamluk State of India (664-686 AH /1265-1287 AD)

Hesham A. el-Sisi
Umm Al-Qura University, Saudi Arabia
haelsisy@uqu.edu.sa

This paper deals with the biography and rule of Sultan Ghayāth ad-Dīn Balaban in the Islamic Mamluk state of India. Balaban left his homeland in West Turkestan and was sold to Baghdad and moved to India to work as a waterman for the Alttmish, Sultan of the Mamluks at that time. The paper sheds light on the conditions that enabled him to rise in positions thanks to his diligence until he reached the position of the Sultanate. Then it seeks to address the internal and external conditions of the state during his reign, and discusses how he succeeded in establishing security throughout the country, and gave great attention to stopping the threat of the Mongols, in addition to his keenness on good relations with the Abbasid Caliphate. The paper concludes by dealing with the civilizational aspects of his era, especially the economic, cultural and social aspects.

Keywords: Sultan Ghayāth ad-Dīn Balaban; Mamluk state; India; Mongol threat.

المقدمة:

يتناول هذا البحث سيرة السلطان غياث الدين بَلَبَن[1] وحكمه دولة المماليك الإسلامية بالهند في الفترة من (٦٦٤-٦٨٦هـ/١٢٦٥-١٢٨٧م)، ويسعى إلى إلقاء الضوء -بحسب ما جادت به المصادر من معلومات- على حياته ونشأته وكيف وصل للهند وتدرجت به المناصب والأحوال حتى وصل لمنصب السلطنة، فضلا عن أحوال الدولة في عهده الداخلية والخارجية، ثم نبذة عن مظاهر عهده الحضارية. ومما يبرر الإقدام على دراسة هذا الموضوع خلو المكتبة العربية من دراسة تتناول عهد هذا السلطان؛ فعلى حد علم الباحث ثمة دراسة وحيدة تناولته بشكل غير مباشر، عنوانها "البنية الزمنية لحكاية بلبن في رحلة ابن بطوطة" لعلي أكبر مراديان قبادي، الباحث بقسم اللغة العربية في جامعة لرستان الإيرانية. إذ يقدم هذا البحث وصفا لحكاية بلبن كما رواها الرحالة ابن بطوطة مستخدمًا العنصر الزمني في سرد القصة، وهو يختلف كمًّا وكيفًا عن موضوع البحث الراهن الذي ينصب على عرض وتحليل حياة بلبن منذ نشأته وتدرجه في المناصب حتى توليه سلطنة دولة المماليك بالهند، وأحوال الدولة في عهده.

المبحث الأول

نشأة بلبن وتدرجه في المناصب حتى توليه السلطنة

ينتمي بلبن إلى إحدى قبائل الترك المعروفة بـ "البري" بإقليم تركستان الغربية. ونتيجة استيلاء المغول على بلادهم[٢] أُخِذ وصارمن جملة المماليك الذين يبتاعهم التجار[٣] ثم يجلبونهم إلى البلدان الإسلامية فيشتريهم الحكام ليكونوا عدة لهم وسندًا[٤]. وفي لك يقول رينيه غروسيه: "كان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد، كثير من المماليك، وكان شأن هؤلاء المماليك في الهند شأنهم في مصر، أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة، اندمجوا في الجيش فامتازوا بالبسالة والإقدام وحسن التدبير. فكان بعضهم يُرقى من درجة إلى درجة أن ينال الإمارة، وأحيانًا السلطة، كما حدث في مصر. ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون إبقاء المآثر، والطمع في تخليد الذكر، فكما أن سلاطين المماليك بمصر ملؤوا مصر والشام مساجد وعمارات، كذلك سلاطين المماليك بالهند كانوا على هذه الطريقة"[٥].

وتأسيسًا على ما سبق، كان بلبن من أولئك المماليك، جُلب في صغره إلى بغداد، فاشتراه الشيخ "جمال الدين البصرى" سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، وكان يُوصف بالتقوى، وأتى به إلى دهلي[٦] حاضرة السلطنة بالهند، وباعه إلى السلطان "ألتمش"[٧]، فرباه في مهد السلطنة حتى تدرج في الإمارة وصار من خاصة حراسه المقربين[٨]. ويروى ابن بطوطة أن السلطان ألتمش رفض شراء بلبن في بادئ الأمر لقصر قامته ودمامته "فقال: لا أقبل هذا، فقال له بلبن: يا خوند (يا سيد) العالم لمن اشتريت هؤلاء المماليك؟، فضحك منه، وقال اشتريتهم لنفسى، فقال بلبن "اشترنى لله عز وجل"، فقبله ألتمش وجعله في جملة المماليك من السقائين[٩]. ولعل هذه الرواية تشير –ولو بشكل ضمني– إلى فطنة وذكاء بلبن، وقدرته على تحريك دفة الأمور لصالحه في الوقت المناسب.

بدأ نجم بلبن في الصعود مذ أن شغل منصب أمير حاجب في سلطنة "علاء الدين مسعود شاه" حفيد السلطان ألتمش، الذي كان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة، وأصبح "نظام الملك" الوزير في عهده هو المتحكم في الدولة، الأمر الذي جعل كبار الأمراء والأعيان بدهلي يتآمرون عليه ويقتلوه، وذلك في جمادى الأولى سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م. ونتيجة لذلك صار كبار الأمراء هم المتحكمون في الدولة، ومن أبرزهم "غياث الدين بلبن"[١٠]. وتمتع بلبن نتيجة اعتلائه

هذا المنصب بهيبة عظيمة لا تقل عن منصب الوزير، مما جعله قريبًا من السلطان ومصدر ثقته وثقة أمرائه[١١]، ومن ثم أقبل بلبن على ضبط أمور الدولة، حتى أثبت كفاءة ومقدرة خاصة عندما تصدى لخطر المغول عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م واستطاع ردهم عن سلطنة دهلي بعد أن أنزل بهم خسائر فادحة[١٢].

على أن الشيء الذي يؤسف له حقًّا هو أن السلطان علاء الدين، ما إن شعر بزوال الخطر المغولي عن دولته ولو مؤقتًا، حتى تحول بأسه -بعد أن كان على عدوه- ضد أمراء الدولة ربما لسطوتهم وتحكمهم في مقاليد الأمور، فمال إلى القتل والسلب، مما أدى إلى اضطرام المنازعات الداخلية، وكانت النتيجة أن تجمع هؤلاء الأمراء ومعهم أعيان الدولة، وتمكنوا من خلعه وقتله سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، وتنصيب ناصر الدين محمود أصغر أبناء السلطان ألتمش على عرش سلطنة المماليك[١٣]. ويبدو أن السلطان ناصر الدين لم يكن بينه وبين أمور السلطنة وإدارتها وفاق، إذ انصرف إلى مصاحبة العلماء والمتصوفين وحياة الزهد والتقشف، وترك أعباء الملك تقع على عاتق "غياث الدين بلبن" بعدما قلده الوزارة ونيابة الدولة ولقبه بلقب "ألغ خاني"، أي السيد الأعظم. وقد اتضح ذلك جليًا من قول السلطان ناصر الدين لـ "بلبن" أثناء تفويضه "إنني جعلتك نائبي، وأسلمت أمور السلطنة لك، فلا تفعل الأمر الذي تعجز عن الرد عليه أمام الله تعالى، ولا تخجلني وتخجل نفسك"[١٤].

وفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م تزوج السلطان ناصر الدين من ابنة وزيره بلبن. وأدى هذا بطبيعة الحال إلى ازدياد نفوذ الأخير واستئثاره بمقاليد أمور الدولة بعدما اكتسب ثقة سلطانه وزوج ابنته في آن واحد[١٥]. وكان بلبن عند حسن الظن به، إذ اضطلع بعبء الحكم في قدرة وكفاءة، وأبلى بلاءً حسنًا في إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع الدولة، بعدما قضى على ثورات الهندوس التي قاموا بها بالبلدان المختلفة الخاضعة لسلطان المماليك، في السند ولاهور وغيرهما، واستعاد العديد من البلدان وأرجعها مرة أخرى إلى حوزة الدولة[١٦]. بيد أن بلبن لم يستطع المضي في تنفيذ سياسته الرامية إلى إعادة الهدوء والسكينة إلى الدولة، بسبب تعرضه لمؤامرة استهدفت الإطاحة به، تزعمها وكيل البلاط السلطاني "عماد الدين ريحان"، الذي كان هندوسيًّا حديث العهد بالإسلام، ولم يرض بما وصل إليه بلبن من نفوذ وسيطرة، فسعى لإحداث الشقاق بين السلطان ووزيره، حتى أفلح في غايته وأبعد بلبن عن الحكم سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ومن ثم أصبح ريحان هو صاحب النفوذ الأقوى في البلاط السلطاني[١٧].

ولم يكن من المنتظر أن يتقبل أمراء الترك وقادتهم ببلاط السلطنة بدهلي، الخضوع لهندوسي قريب العهد بالإسلام مثل ريحان، لذا سرعان ما عقدوا العزم على إعادة بلبن وإقصاء ريحان عن شئون الدولة. بالإضافة إلى أن الأمر ازداد خطورة عندما انضم حكام الولايات الإسلامية بالدولة حول وزيرهم المعزول بلبن، وبادروا بالزحف نحو العاصمة دهلي، بعدما لم يستجب السلطان لنداءاتهم بإبعاد ريحان. وإزاء ذلك أصبح كل من السلطان وقائده ريحان بين شقى الرحى، الأمر الذي أرغم السلطان على الخروج بنفسه للقاء الثائرين خارج دهلي. لكنه منى بالهزيمة، واضطر إلى طلب الصلح مع الثائرين مقابل عزل ريحان، وإعادة بلبن إلى الوزارة مرة أخرى[١٨]. وهكذا عاد بلبن إلى منصبه بعد غياب استغرق زهاء عامين، وذلك في ذي الحجة سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، واستقبله أهالي العاصمة دهلي استقبال الغزاة الفاتحين، ربما لما لمسوه فيه من قيادة حكيمة وقدرة على إدارة أمور الدولة أثناء فترة وزارته الأولى.

أقبل بلبن بكل جدية وتصميم على إعادة إقرار الأمن والنظام داخل أرجاء الدولة، بعد أن اختلت عجلة القيادة وانحرفت عن جادة الصواب خلال الفترة التي غاب فيها؛ حيث أفلح في تطهير معظم ربوع الدولة من المفسدين، سواءً بالقضاء على الفتن الداخلية التي أثارها أمراء بعض الولايات التابعة لسلطنة دهلى، أو الفتن الخارجية التي أثارها حكام الهندوس المستقلين، بالإضافة إلى خطر المغول، حيث استطاع بلبن بتدابيره اللائقة دفع عدوانهم خارج حدود الهند[١٩]. وسرعان ما ساعدت الأقدار بلبن على اعتلاء عرش سلطنة المماليك؛ إذ لم يكن هناك من هو أجدر منه لتولي الحكم، وذلك إثر وفاة السلطان ناصر الدين محمود سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م بعد حكم دام نحو عشرين عامًا[٢٠]. وهكذا كان اعتلاء بلبن عرش سلطنة المماليك بمثابة انتقال للحكم من أسرة شمس الدين ألتمش إلى أسرة مملوكية أخرى تزعمها بلبن.

أيضًا الأمير "هايبث خان"، الذي قتل رجلاً بتهمة السكر والعربدة، فجاء أهل المقتول إلى السلطان بلبن وطلبوا القصاص، فأمر بلبن أن يضربوا ذلك الأمير خمسمائة جلدة، ويسلموه إلى زوجة المقتول لترى فيه رأيها، وانتهى الأمر بإنقاذ هذا الأمير من الموت بعدما تدخل البعض وافتدوه بمبلغ كبير من المال[٢٥]. وهكذا فإن بلبن لم يتردد في عقاب هؤلاء الأمراء وغيرهم، بل اقتص منهم جزاءً لما فعلوه، ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم، وحتى لا يصبح قتلهم للأهالي سهلاً ميسورًا.

وتلك السياسة من جانب بلبن، سرعان ما آتت أكلها، حيث بثت الرعب في قلوب باقي أعضاء جماعة الأربعين، وكل من تسول له نفسه الخروج على طاعة السلطان. فها هو ذا "شيرخان" عم السلطان بلبن، وأكبر الأمراء شوكة ونفوذًا في تلك الجماعة عندما أدرك أن بلبن يسعى للانتقام من الأمراء الشمسية، لزم ولايته بلاهور وتوابعها، ولم يأت إلى دهلي حتى وفاته خوفًا من سوء عاقبته[٢٦]. ومن التدابير والحيل التي حاكها بلبن للتخلص من باقي جماعة الأربعين قيامه بعزلهم من مناصبهم، مثلما حدث مع "تيمور خان" حاكم ولايتي سنام وسامانة بغرب الهند، وتعيين من يثق فيهم من أمرائه وأبنائه محلهم[٢٧]. وبذلك استراح بلبن من خطر داخلي طالما أقلق مضجعه ومن سبقه من السلاطين السابقين. واستطاع توفير جزء كبير من الأمن والأمان لملكه ورعاياه.

كانت الخطوة التالية من جانب بلبن هي تطهير أرجاء البلاد من عصابات المجرمين وقطاع الطرق، الذين انتشروا بصورة مفزعة في الطرق والمسالك الموصلة بين دهلي والبنغال، مستغلين الغابات الكثيفة التي تحيط بتلك النواحي، فيحتمون بها ثم يتسللون ليلاً بين المدن يعيثون فسادًا وتخريبًا وسلبًا ونهبًا للأهالي، ثم يعودون أدراجهم مرة أخرى وهكذا. وعلى الفور اتخذ بلبن إجراءات حاسمة؛ فأوعز إلى جنده بتعقب هذه العصابات، وإزالة الغابات والأوكار التي يختبئون فيها، حتى تمكن في النهاية من تطهير البلاد منهم.

ثم دعم بلبن عملياته هذه، بإقامة الكثير من المعاقل والحصون حول دهلي والطرق الموصلة إليها بعد إزالة الغابات والأحراش، وشحنها بالجند والسلاح والقادة الأقوياء. وبهذه الأساليب القوية الحاسمة استتب الأمن داخل تلك الجهات وأمنت الرعية، وعاد الهدوء والاتصال بين دهلي وأغلب ولاياتها[٢٨]. وزيادة في الحيطة من جانب بلبن لضبط الأمور في دولته، قام بإنشاء شبكة محكمة قوية من الجواسيس وعيون الأخبار، لترصد له كل

حركات وسكنات ما يحدث داخل البلاد، وما ينزع إليه عماله من تصرفات. وتوافيه بأخبارهم تباعًا في دقة وسرعة وتفصيل تام[٢٩]. وكان أعضاء تلك الشبكة يمرون بعدة مراحل تتسم بالدقة والحذر قبل اختيارهم أو ترقيتهم، حتى يلتزموا بالطاعة والنظام، فإذا خرج أحدهم عن جادة الصواب بعد توليته، تتخذ ضده عدة إجراءات منها العزل من منصبه، وأحيانًا عقوبات أشد عنفًا وقسوة، مثلما فعل بلبن بصاحب بريده في مدينة "بدايون"، عندما قام بصلبه لأنه كتم عنه أحد الأخبار[٣٠]. وهكذا كان بلبن حريصًا كل الحرص على التفكير دومًا في أمر توفير الأمن الداخلي لملكه. ولعل ذلك ما جعله يلزم عاصمته دهلي، ولا ينشغل بعيدًا عنها إلا نادرًا، ليكون على مقربة من تتبع ما يحدث في ولاياته المختلفة، وليكون على أهبة الاستعداد لصد أي أخطار تأتى من قبل المغول أو من الولايات الهندية المستقلة التي تحيط بدولة المماليك من كل جانب[٣١].

ولما كان الخطر يأتي أحيانًا من مأمنه، فقد انطبق هذا القول على الأمير "طغرل" والي البنغال، الذي استغل أكثر من فرصة للجهر بعصيانه، والانفصال بولايته عن طاعة السلطان ومركز حكومته في دهلي، وذلك سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، ومن تلك الفرص: أولاً انشغال السلطان بلبن بقمع الفتن والثورات التي قامت حول دهلي لتأمينها والمدن القريبة منها، كما ذكرنا آنفًا. ولا شك أن تلك الأمور تتطلب جهدًا جهيدًا، وتأخذ حيزًا كبيرًا من وقت السلطان، مما يتيح الفرصة لولاية بعيدة كل البعد عن دهلي، مثل ولاية البنغال التي تقع في أقصى الشرق من الهند، لأن يسعى حكامها نحو الانفصال عن السلطنة[٣٢]. وثانيًا الخطر المغولي الذي أحدق بالسلطان بلبن، وجعله يلزم عاصمته دهلي باستمرار، بل وأن يرسل أكبر معينين له وهما: ولديه "محمد" و"غراخان" للمرابطة بالسند والملتان، أقرب منطقتين لمواجهة جحافل المغول[٣٣]. كل هذا أدى إلى ازدياد خطورة "طغرل" وسهولة مهمته في التمرد وإعلان العصيان، فالكل مشغول بمهام الأمور، وما دام الأمر كذلك فلا قِبل إذن لأحد بالمسير إليه ومقاتلته.

وعلى هذا الأساس انطلق "طغرل" يعيث في الأرض فسادًا، فهاجم مدينة جاجنكر -بالقرب من البنغال- واستولى على ما فيها من أسلاب ثمينة طائلة، ومن ثم راح يجهر باستقلاله دون مواربة، فاتخذ لنفسه لقب السلطان مغيث الدين، وأمر بضرب السكة وقراءة الخطبة باسمه، كما رفع جتر (مظلة ملوكية) فوق رأسه كشارة من شارات الملك. ولكي

يكتسب رضاء الخاصة والعامة بالبنغال والمدن القريبة منها، أخذ يفيض عليهم الكثير من المنح والعطايا، حتى استحوذ على ولائهم وطاعتهم له[٣٤]. ونتيجة لذلك ارتفع شأن "طغرل"، وصار يمثل تهديدًا خطيرًا ومباشرًا لدولة المماليك ومركز حكومتها في دهلي.

ولما وصلت تلك الأنباء السلطان بلبن، أصبح في موقف لا يحسد عليه؛ فقد صار محصورًا بين خطرين عظيمين، المغول الذين يهددون المنطقة الغربية من الدولة في السند والبنجاب وذلك من آن لآخر، وخطر طغرل وقواده الذين سيطروا على المنطقة الشرقية بالبنغال وبعض المدن القريبة منها. ومن الجائز جدًا أن تدفعهم أطماعهم حتى يصيروا بين لحظة وأخرى على مشارف العاصمة دهلي ذاتها. وهكذا وقع السلطان بلبن بين شقى الرحى، فكيف السبيل إذن للخروج من هذين المأزقين؟ تكمن الإجابة في أن بلبن رأى استئصال شأفة طغرل أولاً وهو في مبدأ قوته قبل أن يستفحل خطره. أما المغول فيكفي في تلك الآونة أن ابنى بلبن وساعديه "محمد" "بغراخان" مرابطان لمواجهتهم إذا لزم الأمر. علاوة على أن بلبن نفسه بلغ من فرط تحوطه وشدة حذره من المغول أن لزم عاصمته، حتى يكون قريبًا من تتبع الأحداث[٣٥].

ونلحظ ما ألمعنا إليه بوضوح، حينما أرسل بلبن قائده "أيتكين" حاكم مدينة أوده –من أقرب المدن للبنغا– على رأس جيش كبير لمواجهة طغرل. وفي الطريق إلى لكهنوتى –قصبة البنغال– تقاتل الطرفان، مما أسفر عن هزيمة أيتيكين وفراره والكثيرين من جيشه. ومن شدة انفعال السلطان بلبن، وفرط غضبه حين بلغه خبر هذه الهزيمة، أن أمر بقائده أيتكين فشنق على أبواب أوده مركز إقطاعه، فجاءت قسوة هذا الإجراء مذهلة لرجال الدولة مثيرة لقلقهم[٣٦]. إلا أن تلك الهزيمة لم تَفُت في عضد السلطان بلبن –لأنه قرر وضع حد لتصرفات طغرل مهما تكلف الأمر– إذ سرعان ما سير جيشًا آخر لقتاله، بيد أن نصيبه لم يكن بأفضل من سابقه فقد مني بهزيمة شديدة على يد طغرل أيضًا[٣٧] الذي بلغ عن طريق هذين الانتصارين مبلغًا لا يستهان به، وقوة يعمل لها ألف حساب. وهنا قرر السلطان بلبن لوقته، الخروج بنفسه للقاء طغرل. وكان ذلك هو الصواب بعينه، خاصة بعد فشل الحملتين اللتين أوفدهما فشلاً ذريعًا.

وبعد استعداد وتهيئة للأجواء داخل العاصمة دهلي وما يليها من مدن بالمنطقة الغربية المواجهة للمغول، وتكليف كل واحد باختصاصاته، تحرك السلطان بلبن بجيش جرار

وبصحبته ابنه بغراخان صوب البنغال لقتال طغرل، فعبروا نهر الكنج، وسلكوا الطريق الموصل إلى لكهنوتى. وعلى الرغم من شدة موسم الأمطار وكثافة الوحل وكثرة المستنقعات، فقد جد السلطان ومن معه في السير حتى بلغوا لكهنوتى، فوجدوا أن طغرل قد غادرها فرارًا إلى جاجتكر، آخذًا معه ما خف حمله وغلا ثمنه من الكنوز والذخائر بجانب صفوة من رجاله الأشداء، كما اختفي من لكهنوتي أيضًا أغلب أعيانها خوفا من بطش السلطان ونقمته عليه لتقاعسهم في الحد من نفوذ طغرل[٣٨].

وفي فرار طغرل من وجه السلطان بلبن إلى جاجنكر، وخوفه من لقائه، ما يثبت حقيقة ما ألمعنا إليه آنفًا من أن الصواب بعينه كان في خروج السلطان بنفسه من عاصمته دهلي لمقاتلة طغرل، حيث إن شخصية السلطان بلبن في حد ذاتها كانت كفيلة ببث الرعب والخشية في كل من يحاول لقائه في الأحوال العادية، فما بالنا وقد خرج بنفسه على رأس جيش جرار لمحاربة أحد الخارجين على الدولة مثل طغرل. فلا شك والحالة هذه أن الوضع سيكون أشد رعبًا وقسوة، وهذا ما حدث من جانب طغرل عند فراره قبل أن يصل السلطان بلبن. هذا، ولم يدع السلطان بلبن الوقت يمر، بل سرعان ما سلم ولاية لكهنوتى لأحد أتباعه وتعقب طغرل إلى جاجنك. ولما سمع البعض من حكام الولايات الأخرى بمقدم السلطان بادروا من فورهم إلى إعلان طاعتهم له، ومساعدته في الإمساك بطغرل، فكانوا خير معين في ازدياد قوة السلطان وتوحيد صفوفه. أما عن طغرل، فإنه فر من جاجنكر أيضًا بعد سماعه بمجيء السلطان إليها، واحتمى بأحد المخابئ التي تتوسط الغابات الغير بعيدة عن جاجنكر. وآخر الأمر وبعد عناء من جانب السلطان بلبن ورجاله في البحث عن طغرل، استطاع جمع من فرسان المخابرات السلطانية التابعين لـ "بلبن" الاهتداء لمعسكر طغرل وخيمته، فانقضوا عليه وعلى جيشه، الذي تفرق شذرًا مذرًا من هول المفاجأة، وسلكوا طريق الهزيمة ومعهم طغرل، الذي حاول الفرار، بيد أن أحد فرسان بلبن أصابه بسهم أسقطه عن جواده، ثم لحقه آخر ففصل رأسه عن جسده، وجيء بها إلى مقام السلطان[٣٩]. ولم يكتف السلطان بلبن بذلك، بل عاد إلى لكهنوتي وأنزل بأقرباء طغرل، وكل من ثبت تعاونه معه، مذبحة قاسية؛ فقتلوا وعلقوا في المشانق بسوق لكهنوتي، ليكونوا عبرة لمن يعتبر، وحتى لا يفكر أحد في التمرد والعصيان مرة أخرى[٤٠].

تلك كانت نهاية طغرل ورفاقه الذين زين لهم سوء عملهم الخروج على طاعة السلطان

في وقت كانت البلاد في أمس الحاجة إلى توحيد الصفوف ولم الشمل من أجل تهيئة الاستعداد التام لصد أخطار المغول. وبعد أن أعاد السلطان بلبن الأمور إلى نصابها بإقليم البنغال، وحتى يضمن عدم انتفاضة هذه المنطقة مرة أخرى وبقاءها على الولاء، عهد إلى ابنه "بغراخان" سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م بالولاية العامة على سائر مدن إقليم البنغال، كما أوصاه بعدة وصايا ونصائح تدور في مجملها حول الطاعة وعدم التمرد، والاهتمام بأمر الرعية[٤١]. عاد السلطان بعد ذلك إلى دهلي، واستقبله المشايخ والأعيان بكل مدينة مر عليها في طريقه استقبال الفاتحين، فهنأوه وأقاموا الأفراح، حتى إذا ما صار على مشارف دهلي خرج للقائه السادات والقضاة وقدموا التهاني، ثم دخل المدينة وفتح يد الإنعام على من فيها كل حسب حالته، وأصدر مراسيم العفو عن الكثير من أرباب الجرائم والمساجين[٤٢].

لا شك في أن ثورة طغرل كانت من أخطر المشاكل الداخلية التي تعرض لها السلطان بلبن طيلة مدة حكمه، ولعل مكمن الخطورة يتضح في أنها جاءت في توقيت كان ناقوس الخطر المغولي يدق بشدة على الأبواب. وإذا كان البعض قد عاب على بلبن لزومه عاصمته في بادئ الأمر دون الخروج منها للقضاء على طغرل[٤٣]. فيمكن أن نلتمس له العذر في ذلك، حيث رأى أن الضرورة تحتم عليه البقاء في العاصمة دهلي خشية المغول، ومع ذلك فإنه لم يتقاعس عن مواجهة طغرل، حيث بعث بحملتين الواحدة تلو الأخرى لعلهما تفيان بالغرض، فلما فشلا لم يكن ثمة بد إلا خروجه بنفسه –قبل أن تنقلب الأمور رأسًا على عقب– حتى تحقق له أخيرًا ما أراد.

على أن أبرز النتائج التي تمخضت عن القضاء على ثورة طغرل هي عودة الهدوء والأمن داخل ربوع الدولة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وذلك طيلة الفترة الباقية من حكم السلطان بلبن، والتي لم يعكر صفوها إلا وفاة ابنه الأكبر الأمير "محمد خان" آخر سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٥م خلال إحدى المعارك التي خاضها ضد المغول في إقليم الملتان[٤٤]. ولما كانت آمال السلطان مركزة في ابنه الأكبر "محمد خان" ليخلفه على العرش، لذا فإن خبر وفاته وقع على قلب أبيه بلبن كالصاعقة، إذ حزن واغتم كثيرًا وخارت قواه لاسيما وقد كان في تلك المرحلة يبلغ الثمانين عامًا، وعلى الرغم من تكلفه في إظهار قوته وشجاعته، إلا أن آثار الضعف والعجز لم يتركا له السبيل ليهنأ. ومن ثم رأى السلطان إنقاذ ما يمكن إنقاذه في تلك المرحلة الحرجة من حياته –فلعله شعر بدنو أجله–، حيث أرسل إلى ابنه الوحيد "بغراخان"

حاكم البنغال للحضور إلى دهلي، ليوليه عهده، فلما حضر قال له أبوه في عبارات يملأها الأسى والحزن: "فراق أخيك الكبير أضعفني وآلمني، وأرى أن وقت الرحيل قد حان، وغيبتك مني بعيد عن المصلحة، لأنه ليس لدي وريث غيرك، وابنك كيقباذ وابن أخيك كيخسرو صغار، ويجهلان تجارب الحياة، وإذا وقع الملك في أيديهما لا يمكنهما المحافظة عليه أو تحمل عهدته لغلبة الشباب والهوى"[٤٥].

وعلى الرغم من تلك الكلمات التي تحرك الصخر من مكامنه، إلا أن بغراخان ركب رأسه متظاهرًا بطاعته لأبيه، مؤثرًا البقاء في البنغال بعيدًا عن دهلي ومشاكلها. ولذلك فما إن تحسنت حالة السلطان قليلاً، إلا ورآها بغراخان فرصة، فعاد إلى البنغال بدون إذن أبيه[٤٦] عودة من لا يرجو رجوعًا. هنالك لم يجد السلطان بدًا، فأوصى بولاية العهد من بعده لحفيده كيخسرو ابن ابنه "محمد خان" الشهيد. وما هي إلا أيام حتى انتقل السلطان بلبن إلى جوار ربه بعد حكم دام اثنتين وعشرين عامًا تقريبًا وذلك سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ودفن بدار الأمن بدهلي[٤٧].

والواقع أن الفترة التي ساس فيها بلبن البلاد -كما رأينا- قد أدارها بالحزم والمقدرة، فقضى على الفتن والمؤامرات الداخلية قضاءً تخللته القسوة أحيانًا، ولا غرو فبمقياس عصره رأى أن الأمور تتطلب ذلك حتى يستقيم المعوج، وتنصلح أحوال الدولة، فإذا صلح البيت من الداخل أصبح بالإمكان علاج ما بخارجه، وهذا ما وضعه السلطان بلبن نصب عينيه طيلة مدة حكمه، وعمل على تحقيقه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

المبحث الثالث

السياسة الخارجية في عهد السلطان بلبن

أ. العلاقة مع الخلافة العباسية:

كانت الخلافة بالعباسية ببغداد (في أوائل القرن السابع الهجري تقريبًا/ الثالث عشر الميلادي) تعانى ضعفًا سياسيًا، نتيجة التمزق والانقسام الذي حل بالعالم الإسلامي، وحوله إلى دويلات وإمارات متعددة لا تدين بالتبعية السياسية للخلافة، مما استتبع ضعف قبضة الخليفة على زمام الأمور في تلك المناطق، واقتصار سلطته ونفوذه السياسي على جزء صغير داخل بلاد العراق[٤٨]. هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الدينية أو الروحية، فإن سلطة الخلافة كان لها صداها وبريقها، وكانت محل تقدير واحترام من جانب بعض حكام الدول الإسلامية، لاسيما أولئك الذين يسعون إلى إضفاء الشرعية على سلطانهم الذي وصلوا إليه بالقوة، ولا يجدون بغيتهم إلا بالاعتراف من جانب ولي الأمر، وهو الخليفة، بمنحهم التفويض أو التقليد الشرعي بتثبيتهم في مراكزهم وعلى البلاد التي يحكمونها[٤٩] . من هذه الدول، الدولة الإسلامية بالهند في عصر المماليك التي حرص بعض سلاطينها على توطيد علاقتهم مع الخلفاء العباسيين ببغداد، كي يكسبوا حكمهم صفة الشرعية، ومن ثم يتقوا بها أمام مناوئيهم وأعدائهم.

ويرجع الفضل في ذلك إلى السلطان ألتمش الذي يعد أول سلطان مسلم مستقل يحكم الدولة الإسلامية بالهند، يتسلم تقليدًا من الخليفة العباسي المستنصر بالله[٥٠] بالاعتراف بسلطنته، أو كما يقول برتولد شبولر Bartold Shobelar عن ألتمش "أنه أول حاكم مسلم في الهند يستلم البراءة السلطانية من الخليفة"[٥١]. وظلت العلاقات ودية بين الطرفين، ولم يتغير الوضع بعد اعتلاء بلبن عرش السلطنة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، بل ظل على ولائه للخلافة العباسية ببغداد، على الرغم من اندثارها وانتقال مركزها نهائيًا إلى مصر[٥٢]. واستمر بلبن على إبقاء اسم الخليفة المستعصم على النقود، وذكر اسمه في الخطبة، كما لقب نفسه باسم "ناصر أمير المؤمنين"، ودام على هذا الوضع حتى وفاته سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م[٥٣]. كذلك قام بلبن بفتح أبواب دولته بالهند أمام الأعداد الهائلة من الذين فروا من بغداد إثر سقوط الخلافة بها، وكان من بينهم أميران من أبناء آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله اللذين عاملهما بلبن معاملة خاصة وأكرمهما بإنزالهما بالبلاط السلطاني بدهلي[٥٤]. وهكذا أثبت

بلبن ولاءً خاصًا للخلافة العباسية ببغداد على الرغم من اندثارها؛ فأحيا شعائرها وآوى أبناءها.

ويبدو أن حالة الحرب التي كانت قائمة بين بلبن والمغول[٥٥] بعد القضاء على الخلافة العباسية ببغداد، كان لها دخل كبير في إقدامه على اتخاذ مثل تلك الإجراءات السالفة الذكر؛ فإذا كان المغول قد أسقطوا الخلافة، فها هو ذا بلبن يعلن تحديه لهم بإحياء شعائرها، وإيواء أبنائها رغمًا عن أنف المغول، وأنه (أي بلبن) كفؤًا لصدهم والانتقام منهم. ولا يعنى هذا أنه لم يعترف بالخلافة العباسية بعد انتقالها إلى مصر، بل على العكس، فقد أفادت الأنباء الواردة في ذلك إنه كَنّ لها كل احترام، بدليل وصيته لأولاده من بعده بالسعي في الحصول على الاعتراف بحكمهم من قبل الخليفة العباسي بمصر[٥٦].

ب. علاقات السلطان بلبن مع ولايات الهند المستقلة:

أخذت الدولة الإسلامية –في بداية عهدها– بشمال الهند شكل قوس أو هلال مقلوب، يمتد من أقصى الشرق من البنغال حتى بداية إقليم الكجرات غربًا. وفي المقابل كان بالجزء الباقي من الهند ولايات هندوسية مستقلة لا تدين بالطاعة أو الولاء للدولة الإسلامية، وترفع لواء العصيان ضد حكامها، ومن تلك الولايات: مالوه بوسط الهند وتضم مدنًا أهمها أوجين وبهيلسة وجنديرى. وتعد ولاية مالوة هذه من أعظم معاقل الهندوس، ففيها الكثير من معابدهم التي تحوي تماثيلاً لملوكهم القدماء التي يقدسونها. وهناك أيضًا ولاية بنديلكهند بالقرب من مالوه، إلى جانب ولايات أخرى مثل خانديس وتلنجاتا اللتان تقعان في اتجاه جنوب الهند[٥٧]. وفي ضوء ذلك، فقد كانت هذه الولايات تمثل تهديدًا مباشرًا وخطرًا محدقًا بالدولة الإسلامية التي أصبح على سلاطين المماليك حمل لواء الدفاع عنها وتثبيت أركانها

وقد استطاع "غياث الدين بلبن" منذ توليه منصب الوزارة ونيابة السلطنة في عهد السلطان "ناصر الدين محمود بن ألتمش" –تولى حكم دولة المماليك سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م– أن يُمسك بزمام الأمور، بعد أن ترك له السلطان ناصر الدين حرية التصرف في أمور الدولة[٥٨]. استطاع بلبن خلال تلك المدة أن يأخذ على عاتقه محاولة إعادة الهدوء إلى ربوع الدولة، واقتفي أثر من سبقه من سلاطين المسلمين في الهند، فطفق ينظم شؤون الدولة الداخلية في حزم بالغ، حتى إذا ما تم له ذلك[٥٩] انطلق يبغى تأمين سلطان دهلي ويثبت من هيبتها بإخضاع الولايات

الهندوسية الثائرة التي استقلت عن دهلي وجمعت شتات أمرها، ووحدت صفوفها، تحت قيادة واحدة، وبعد وفاة السلطان ألتمش.

ومن أبرز هذه الولايات "كواليار" و"مالوه" اللتين توحدتا تحت قيادة حاكم هندوسى يدعى "جاهر ديو". ذلك الرجل الذي استطاع أن يجمع جيشًا قوامه خمسة آلاف فارس ومائتى ألفًا من المشاة لملاقاة السلطان ناصر الدين بن ألتمش ووزيره بلبن. ثم دارت معركة شديدة بين الفريقين أبلى فيها بلبن بلاءًا حسنًا، كان له أعظم الأثر في هزيمة "جاهر ديو" آخر الأمر، وكان من نتيجتها أن دانت السيطرة مرة أخرى على جميع الأراضي من كواليار حتى مالوه وذلك سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م[٦٠]. كذلك استطاع بلبن التصدي لقبائل الكهوكهرية، الذين كانوا يسكنون بجبال الجودي بين لاهور والملتان ويثيرون الذعر بين الحين والآخر حتى أصبحوا مصدر خطر على العاصمة دهلي نفسها، فعبر إليهم بلبن على رأس قواته من نهر راوي أحد روافد السند، واقتحم منازلهم وأمن شرهم[٦١].

ولم ينس بلبن أن يشمر عن ساعد الجد أيضًا –بعد أن ولى عرش سلطنة المماليك خلفًا للسلطان ناصر الدين محمود إثر وفاته سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م– لمواجهة خطر العشائر الهندوسية الأخرى التي عملت على قطع الطريق بين دهلي وما حولها، حتى طفقت تهدد دهلي نفسها. وقد تمثل هذا الخطر الداهم في عشائر المواتيين Mewatis ببلدة موات بولاية راجبوتانه. وقد أثبت بلبن كفاءة ومقدرة في مواجهة تلك العشائر، فتعقبهم هو وجنده وطاردهم في الأدغال والغابات التي كانوا يحتمون بها، حتى قضى على فسادهم، وأطاح برقاب الكثير منهم، وأمنت البلاد من شرهم، وأصبح الطريق بين دهلي وولايتها خاليًا من مفسدى هذه العشائر[٦٢]. وحتى يأمن بلبن على دولته، ويحميها من أي أخطار تتهددها من جانب الهندوس أو الخطر المغولي من خارج الهند، فقد أقبل على تدعيم ربوع الدولة بإقامة الكثير من المعاقل والحصون في مختلف أنحائها، وتعميرها بالجند والسلاح، كما أمر بشق كثير من الطرق عبر الأدغال والأحراش، بالإضافة إلى استعانته بشبكة محكمة من الجواسيس لضبط الأمور في دولته المترامية الأطراف لتوافيه بكل ما يجرى في البلاد بدقة وسرعة تفصيل تام[٦٣].

وعلى ذلك يمكننا أن نقرر أن سياسة السلطان بلبن الخارجية تجاه الولايات الهندوسية، تركزت في استرجاع أو استعادة الولايات التي كانت في حوزة الدولة وشذ أصحابها بالخروج على طاعة السلاطين السابقين، فعمل على اخضاعها لمركز الحكومة في دهلى، ولم يحاول

التوسع، بل كان يبغى تأمين وتحصين دهلي وما حولها في ربوع دولته. وعلى العموم يتضح لنا مما سبق أن سياسة بلبن تجاه ولايات الهند المستقلة لم تكن مبنية على التوسع، إلا بالقدر الذي يؤمن ويثبت من حكم المسلمين للأجزاء التي فتحوها وكونوا منها دولتهم بشمال الهند، والمحافظة عليها خوف الانهيار، وهي سياسة من سبقه من سلاطين الدولة، خاصة وأن المغول كان خطرهم يشتد كلما سنحت لهم الفرصة لزعزعة أمن واستقرار دولة المماليك بالهند. ولعل هذا الكلام نلمسه بوضوح خلال حديث السلطان بلبن عندما عرض عليه بعض أمراء دولته ألا يفوت الفرصة باغتنام بلدان الهند الأخرى التي لم يتم فتحها، فرد عليهم بلبن بقوله:

"إنه بسبب قدوم المغول الذين يحضرون سنويًا للسلب، فإنه لا يمكن أن أنشغل بعيدًا عن دهلي، فالأولى أن تهتم بولايتك، وبعد ذلك فكر في أخرى، وهو كلام السلاطين السابقين، وإن من الأفضل أن توفر الأمن والأمان للملك، بدلاً من أن تسيطر على ملك الآخرين"[٦٤].

ج. علاقات السلطان بلبن مع المغول:

منذ أن انطلق المغول من صحراء جوبى[٦٥] بقيادة زعيمهم جنكيز خان (تيموجين)، وهم يبحثون عن مكان لهم وسط القوى الكبرى المعاصرة لهم، أو إن شئت قل الإجهاز على تلك القوى حتى تكون لهم الزعامة المنفردة، وذلك وفق سياسة توسعية محكمة، عبر عنها جنكيز خان أصدق تعبير بقوله: "كان الرجال الحكماء المسنون يعلموننا دائمًا أن القلوب والعقول المتباينة، لا يمكن أن تكون في جسد واحد، ولكنى أريد أن أثبت أن ذلك ممكن عمليًا، فسوف أبسط نفوذي على جميع جيراننا"[٦٦]. وبالفعل فقد استطاع جنكيز خان أن يبسط سيطرته على معظم القبائل المغولية ويكون منها حكومة واحدة، ثم انطلق جنوب مملكته ببلاد الصين؛ فاستولى على مساحات شاسعة بالشمال منها، توجها بالاستيلاء على بكين العاصمة سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م[٦٧]. في هذا التوقيت على وجه الخصوص كانت الدولة الإسلامية بالهند بقيادة المماليك قائمة وفي بداية قوتها بزعامة السلطان ألتمش، ومن المفترض أن دولته سوف تصبح بذلك محط أنظار جنكيز خان بعد اتمام سيطرته على الصين حسب خطته التوسعية[٦٨]. لكن لحسن توفيق الله لدولة المماليك في تلك الآونة أن جنكيز خان فضل العودة من الصين إلى منغوليا سنة ٦١٣/١٢١٦م استعدادًا لتعقب أعدائه من القبائل المغولية

الذين فروا إلى الممالك الغربية، وبذلك نجت دولة المماليك –ولو مؤقتًا– من أخطار وويلات المغول.

ولما سقطت الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على أيدى المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان، كان لهذا الحدث عواقب أليمة على معظم الدول الإسلامية، لا سيما الدولة الإسلامية بالهند، التي كان حكامها يتخذون من الخلافة قوة روحية ومعنوية تدعم سلطانهم، على الرغم مما وسمت به الخلافة من ضعف سياسي قبل سقوطها بمدة طويلة[٦٩]. وكان على رأس القائمين بذلك "غياث الدين بلبن"، الذي كانت بيده مقاليد الأمور وتصريفها خلال سلطنة ناصر الدين محمود. ومن بين تلك الإجراءات: تحصين دولة المماليك وعاصمتهما دهلي، خاصة من الناحية الشمالية الغربية، وهى الناحية أو خط السير المعتاد لدخول المغول واختراقهم الهند، علاوة على قيام بلبن وتحديًا من جانبه لخاقان المغول، بسك عملة عليها اسم الخليفة المستعصم المقتول، وذكر اسمه في الخطبة على المنابر[٧٠].

ويبدو أن تلك الوقفة ضد المغول، بعدما تزايد طغيانهم وجبروتهم، قد أتت بثمارها. وذلك حينما أرسل "هولاكو" سفارة من لدنه محملة بالهدايا إلى دولة المماليك، كان في استقبالها السلطان ناصر الدين محمود ووزيره بلبن. وكان الغرض من تلك السفارة احترام السيادة الإقليمية بين الطرفين، وانسحاب المغول من الأراضي الهندية التي كانوا قد احتلوها، واتفق الطرفان على ذلك وتحسنت العلاقات بينهما[٧١]. وهكذا صارت دولة المماليك مرهوبة الجانب يخشى المغول بأسها، بفضل سياسة وزيرها بلبن الذي عرف كيف يواجه خطرهم الداهم بكفاءة ومقدرة. حتى أن هولاكو عندما كان في بغداد وسمع أن بلبن يواظب على رياضة الصيد بعدما آلت إليه السلطنة –وما لهذه الرياضة من أهمية قصوى لدى المغول–[٧٢]، فقال (أي هولاكو): "إن بلبن سلطان يظهر للناس أنه يذهب إلى الصيد، وفي الحقيقة فإن الركوب للصيد رياضة ويعطى لجيشه مثالاً ويحمى ملكه". وعندما وصل هذا الكلام إلى بلبن، سر وأثنى على ذكاء هولاكو وقال: يعلم قواعد الملك أشخاص حكموا العالم واستولوا على الملك"[٧٣].

على أن بلبن لم يركن إلى العلاقات الحسنة التي ربطت بينه وبين هولاكو، والتي انتهت بوفاة الأخير سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م[٧٤]، بل ظل في هم مقيم خشية قدوم المغول في أي وقت لغزو الهند، وأخذ يعمل لهذا الأمر ألف حساب، لا سيما بعدما ارتقى عرش سلطنة المماليك

سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، وأصبح هو المسئول الأول عن درء خطر المغول عن البلاد. وفي سبيل ذلك قام السلطان بلبن بتعمير مدينة لاهور وبناء قلعتها وتحصين قراها، وهى المناطق التي قد سبق تخريبها على أيدي المغول بشمال غرب الهند، كما أقام الكثير من المعاقل والحصون في مختلف أنحاء البلاد وتعميرها بالجند والسلاح. وعهد أيضًا إلى ابنيه محمد وبغراخان بالمرابطة في الملتان وسمانة أقرب مراكز الحدود الشمالية الغربية تعرضًا للخطر المغولي، وأمدهما بجيوش قوية حسنة التدريب[٧٥].

وعلاوة على ذلك لزم السلطان بلبن عاصمته دهلي، متخذًا إياها مركزًا لتوجيه قواده وإمدادهم بما يحتاجونه كلما استدعت الضرورة. ولعل ما أثر عن السلطان بلبن في هذا الصدد يوضح لنا هذه الأمور، فقد قال في أحد المناسبات: "إنه بسبب قدوم المغول الذين يحضرون سنويًّا للسلب، فإنه لا يمكن أن أنشغل بعيدًا عن دهلي[٧٦]. ورغم أن هذا الأمر جر على السلطان بلبن صعابًا داخلية شديدة، خاصة ثورة الأمير طغرل بالبنغال، التي اضطر بلبن للخروج إليها من دهلي والقضاء عليها[٧٧]، إلا أن ذلك لم يفت في عضده وأخذ أهبة الاستعداد لمواجهة المغول إذا لزم الأمر. فقد عهد بلبن -في أثناء مدة غيابه بالبنغال- إلى ابنه الأكبر الشجاع محمد خان بأمر الجبهة الغربية المرابطة لصد المغول، أما دهلي فقد تركها في يد "فخر الدين" أكبر الأمراء ورئيسهم بالبلاط السلطاني. وما إن عاد بلبن من البنغال، وتسلم مقاليد الأمور، إلا ولزم عاصمته في أغلب الأوقات، مترقبًا ومتحفزًا لأى هجوم مفاجئ من جهة المغول[٧٨].

وحدث ما كان متوقعًا ففي سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، في عهد آباقا بن هولاكو، هاجم الجيش المغولي الهند، بيد أن التدابير التي اتخذها بلبن للدفاع عن البلاد، وشجاعة ابنه محمدًا كان لهما أكبر الأثر في دحر هذا الجيش المغولي وهزيمته والحيلولة بينه وبين مراميه في الهند[٧٩]. على أن تلك الحملة المغولية وغيرها مما ذكرناه، لا يمكن مقارنتها بتلك التي حدثت في أواخر سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، لما ترتب عليها من نتائج بالغة الأهمية. ففي هذه السنة عاد خطر المغول يدق أبواب الهند بشدة وعنف، وذلك حينما أرسل "أرغون"، إمبراطور مغول فارس وحفيد هولاكو، جيشًا يتألف من نحو عشرين ألف مقاتل إلى السند بقيادة تيمور خان، الذي اخترق بجيشه حدود الهند من ناحية الشمال الغربي -كما جرت العادة- إلى أن بلغ المناطق التي بين لاهور وديبالبور، فعاثوا فيها فسادًا وتخريبًا حتى قتلوا خلقًا كثيرًا ونهبوا

أموالاً جمة. وما إن وصلوا إلى الملتان، إلا وكان الأمير محمد خان بن بلبن معسكرًا بقواته، معدًّا العدة لصدهم ودرء خطرهم. والتقى الجمعان في معركة حامية الوطيس، هزم في أولها القائد المغولي تيمور خان وفر من المعركة، بعدما كبدته القوات المملوكية الكثير من الخسائر. وفي أثناء ذلك وبينما الأمير "محمد" منشغلاً بأداء الصلاة ومعه زهاء خمس مئة من رجاله –ربما لظنهم أن الأمور صارت لصالحهم– فإذا بألفي من قوات المغول ينقضون عليهم فجأة، مما أحدث اضطرابًا في صفوف الجيش المملوكي، أعقبه تماسكًا في القتال من جانبهم ضد المغول، كاد أن يسفر عن نصر ساحق للقوات المملوكية، لولا سهم غَرِب أصاب الأمير محمدًا فأرداه شهيدًا في ساحة المعركة[٨٠].

ولم تفصح لنا المصادر عما آلت إليه نهاية هذه المعركة، وإن كان الغالب –في ضوء ما ذكرناه– بعد فرار القائد المغولي تيمور من المعركة، ومدى الخسارة التي لحقت به، أن معظم جيشه تمزق وتشرد حتى فقد أكثره ما بين قتيل وجريح وأسير؛ خاصة بعدما أصبح بلا قيادة توجهه وتقوده. ولا يدحض في ذلك ما ذكرناه من هجوم الفئة المغولية على الأمير محمد وأتباعه أثناء انشغالهم بأداء الصلاة، بل يؤيد ما قلناه ولا عجب؛ فهذه الفئة المغولية كانت تقدر بنحو ألفين، أي عدد قليل جدًا من تعداد الجيش المغولي الذي بلغ زهاء عشرين ألف مقاتل. وبذلك يحق القول إن تلك المعركة أسفرت عن هزيمة منكرة للمغول، وانتصارًا مؤزرًا للمماليك، حفظ الهند وأنقذ مملكة دهلي من كارثة مروعة كادت أن تعصف بها. وإن كانت ثمة خسارة، فلا شك أنها تلك التي تمثلت في مقتل الأمير محمد واستشهاده، وهو الحدث الذي وقع على قلب أبيه السلطان بلبن كالصاعقة. ففضلاً عن أن الأمير محمدًا كان أحب أبنائه إليه، فإن بلبن كان يعلق عليه آمالاً كبيرة ليخلفه من بعده على عرش البلاد، لكفاءته وجدارته باعتلاء هذا المنصب.

ولا نبالغ إذا ما قلنا أن مقتل الأمير محمد أدى إلى اختلال عجلة القيادة في الدولة، لأن السلطان بلبن وقتئذ كان قد بلغ الثمانين من عمره؛ فلم يتحمل تلك الصدمة وخارت قواه يومًا بعد يوم إلى أن لحق بابنه سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م وخلفه على عرش السلطنة حفيده معز الدين كيقباذ، الذي صارت الدولة في عهده تنحدر بشدة نحو الاضمحلال والأفول[٨١]. وإذا كان هناك من كلمة حق تُقال في حق بلبن، فهي أن التاريخ يذكر له بالخير والتقدير موقفه الكريم إزاء الأمراء وأبناء الملوك الذين فروا من وجه المغول، والتجئوا إليه من بلاد تركستان

وما وراء النهر وخراسان والعراق وآذربيجان وفارس والشام وغيرها، فوجدوا عنده بالهند الأمن والإكرام والإعزاز، وكان فيهم بعض أبناء الخلفاء العباسيين الذين كان ينزلهم منزلة خاصة ويجلسهم معه في مجلسه الخاص. وقد بنى (أي بلبن) لهؤلاء الذين التجؤوا إليه عدة أماكن، وجهزها تجهيزًا طيبًا يتناسب مع مقامهم وسماها: محلة عباسي، محلة سنجرى، محلة خوارزم شاهي، محلة ديلمي، محلة علوي، محلة أتابكي، محلة غوري، محلة جنكيزي محلة رومي، محلة سنقري، محلة يمني، محلة موصلي، محلة سمرقندي، محلة كاشغري، محلة خطائي. وكان بلبن يجد في إكرامه لضيوفه هؤلاء لذة ونعمة يشكر الله عليها[٨٢].

المبحث الرابع
نبذة عن المظاهر الحضارية في عهد السلطان بلبن

سنحاول قدر المستطاع خلال الصفحات التالية –نظرا لندرة المعلومات– إعطاء صورة شاملة عن المظاهر الحضارية للدولة الإسلامية بالهند في عهد السلطان بلبن. ففي مجال الزراعة على سبيل المثال وليس الحصر، نرى السلطان بلبن كان يلجأ إلى إنشاء الصوامع لتخزين الحبوب مثل الأرز أو الذرة للانتفاع بها أوقات الشدة والقحط. ومثل هذه الحبوب كانت تخزن لمدد طويلة وبطرق تجعلها لا تتغير ولا تطرقها آفة[٨٣] . وفي مجال الصناعة؛ فيأتي في مقدمتها بطبيعة الحال صناعة الأسلحة بأنواعها المختلفة، لأن طبقة المماليك طبقة عسكرية في المقام الأول، فهناك صناعة الرماح والسهام والسيوف والمجانيق وغيرها، بالإضافة الى صناعات خاصة بالبلاط السلطاني، مثل: البسط المزخرفة والأواني الفضية والذهبية، والستائر المنسوجة بالذهب. وكان السلطان بلبن يستخدم هذه الأشياء، ويبالغ في إظهارها في مجلسه خاصة عند استقباله للملوك والأمراء حتى يضفي الهيبة والعظمة على مجلس السلطنة[٨٤] .

وفي المضمار الثقافي حرص السلطان بلبن على تبجيله للعلم ومحبته للعلماء والإحسان إليهم، والتردد على بيوتهم للاستفادة منهم. هذا بالإضافة إلى حرصه على عقد مناظرات علمية في بلاطه بين الشعراء والأدباء، ومجالس العلم التي تُقرأ فيها الكتب التاريخية القيمة مثل الشاهنامة للفردوسي، ودواوين الشعر الفارسية مثل خمسة نظامي[٨٥]. وكمثال لمجالس الوعظ؛ كان السلطان بلبن يواظب على حضورها، ومتى سمع عن مجلس كان يبادر إلى حضوره ويقعد فيه كآحاد الناس[٨٦]. ومن العلماء المشهورين الذين شهدتهم الدولة الإسلامية في عهد السلطان بلبن:

- الشيخ الكبير القاضي "رفيع الدين الحنفي الكاذرونى"، وكان من كبار الأساتذة بدهلي.
- العالم الفقيه سديد الدين الدهلوي الحنفي، أحد العلماء المبرزين في الفقه الحنفي وأصوله، وكان يُدرس ويفيد أيضًا بدار الملك دهلي في عهد السلطان بلبن[٨٧].
- الشيخ حميد بن أحمد بن محمد المشهور بـ "سلطان التاركين" (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م). وكان أول مولود بدار الملك دهلي، بعد فُتحت لأول مرة في عهد قطب الدين أيبك. أخذ

التصوف عن شيوخ الهند المشهورين، مثل الشيخ معين الدين حسن السجزي ولازمه زمانًا، ولقبه شيخه بسلطان التاركين لزهده في زخارف الدنيا واستغنائه عن الناس، فعد لذلك آية باهرة في الفقر والقناعة والتبتل إلى الله تعالى. وكانت له أرض بالهند بقدر فدان يزرع فيها، ويجعل ما يحصل منها قوتًا له ولعياله، وله مصنفات ورسائل إلى أصحابه، وأشهر تصانيفه "أصول الطريقة"(٨٨).

- الشيخ حسين بن على بن جعفر البخاري (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م) أحد رجال العلم والمعرفة. وُلد بمدينة بخارى ونشأ بها، وقرأ العلم وتأدب على والده ثم قدم الهند مع ولديه، وتزوج بها، وطاف أكثر من مدينة بالهند حتى استقر في مدينة "أج" بالسند يدرس ويفيد، وكان عالمًا كبيرًا فقيهًا زاهدًا، أخذ عنه خلق كثير من العلماء والمشايخ، وبارك الله تعالى في ذريته فملأوا آفاق الهند(٨٩).
- الشيخ العالم المحدث محمد بن أحمد الدهلوي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م). تتلمذ على يد الصاغاني سالف الذكر، وأخذ عنه وأُجيز منه. كما أخذ عن غيره من علماء الهند حتى صار عالمًا محققًا ورعًا متبحرًا في الحديث والفقه. وبلغ من زهده وبعده عن أصحاب الجاه، أن السلطان غياث الدين بلبن أراده لإمامته في الصلاة، فأبى ذلك وقال: "لم يبق لي عمل من الأعمال الصالحة غير الصلاة، والسلطان يريد أن يبطلها أيضًا"(٩٠).
- العالم الإمام برهان الدين محمود بن أبى الخير البلخي (ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م). من المشهورين بالذكاء والفطنة والتبحر في علوم الحديث والفقه والنحو واللغة. أخذ الحديث عن الإمام الصاغاني -سالف الذكر- وكان السلطان بلبن يتردد إلى الشيخ برهان الدين هذا كل أسبوع بعد صلاة الجمعة، ليحظى بصحبته(٩١).
- أشهر أدباء هذا العصر بلا منازع، أمير خسرو بن سيف الدين محمود الدهلوى. وُلد سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م بالهند، ونشأ بها في مدينة دهلى، وكانت وفاته سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م وله أربع وسبعون سنة، ودفن بمدينة دهلي(٩٢). تقرب خسرو من السلطان بلبن وابنه الأمير محمد خان، حتى صار معظمًا عندهما خاصة الأمير محمد خان. وكان خسرو من المرموقين في أكثر فنون المعرفة، مثل الأدب والبلاغة والموسيقى. ولعل ما ساعده على بلوغ تلك المرتبة، رقة أحاسيسه وعواطفه، وعمق ثقافته، وتفوقه في اللغات التي تظهر في أشعاره المنظومة بالهندية والفارسية والعربية، حتى وُصف بأنه: "كان ملك ملوك الشعراء من السلف إلى الخلف، ولم يكن له نظير في اختراع المعاني، وكشف الرموز الغريبة،

وكثرة المصنفات، فإن كان بعض الشعراء متفردًا في فن أو فنين، فإنه كان متفردًا في جميع الفنون الشعرية، ومع ذلك الفضل والكمال، كان صوفيًا مستقيم الحال". ومن مصنفاته : خمسة دواوين في الشعر الفارسي هي: "تحفة الصغير" و"وسط الحياة" و"غرة الكمال" و"البقية النقية" و"نهاية الكمال". كما أن له أشعارًا تسمى "خماسيات" في نحو ثمانية عشر ألف بيت، وهى أشعار تتكون من كل خمسة أبيات على حدة، كتبها بالفارسية. وله أيضًا منظومة "قران السعدين" ألفها سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م أواخر عهد الدولة في لقاء السلطان كيقباذ بأبيه بغراخان. ومن أشعاره التي ألفها بالعربية قوله:

ذاب الفـؤاد وسـال مـن عينـي الـدم وحكى الدوامع كل ما أنا أكتـم
وإذا أبحت لدى الورى كرب النوى تبكـي الأحبـة والأعـادي ترحـم
يـا عـاذل العشـاق دعنـي بـاكيًا إن السكـون علـى المحـب محـرم
مـن بـات مثلـى فهـو يـدري حالتـي طـول الليالـي كيـف بـات متيـم

ولم يكن يجاريه في البلاغة أحد من العلماء، ويظهر ذلك بوضوح في اختراعاته وابتكاراته البلاغية التي أضافت كثيرًا إلى التراث البلاغي الفارسي والعربي. ومن تلك الابتكارات نوع من البديع يسمى "أبو قلمون"، وهو في اللغة ثوب رومي يتلون ألوانًا، وفي الاصطلاح عبارة واحدة تؤدى معناها في لغتين أو أكثر. وهناك نوع آخر يقال أيضًا أن خسرو ابتكره ويسمى "ذو الوجهين"، وهو أن يرتب المتكلم كلامًا يصح معناه بالعربية والفارسية بالتصحيف والتحريف. ونوع آخر يسمى "قلب اللسانين" وهو أن يرتب المتكلم كلامًا عربيًّا إذ قُلب يكون كلامًا فارسيًّا، أو كلامًا فارسيًّا إذا قُلب يكون كلامًا عربيًّا. أما مصنفات خسرو في البلاغة، فمنها: "إعجاز خسروي" في البدائع، و"محسنات الكلام" في ثلاث مجلدات[٩٣].

وتفرد خسرو في **علم الموسيقى**، وكان ماهرًا فيها علمًا وعملاً، إلى جانب نبوغه في الأدب والبلاغة. ومن مخترعاته في الموسيقى ألوان كثيرة منها "القول" و"ترانه" و"خيال" و"نقش" و"نقار" و"بسيط" و"تلانة" و"سوهلة". كما أن له تصرفا عجيبا في الأغاني الهندية القديمة. وبالإضافة إلى ذلك، كان خسروا مغنيًا رائعًا، وصنف كتابًا عن فن الموسيقى والألحان الموسيقية، وأغانيه باللغتين الفارسية والهندية. كما أن له مؤلفات أخرى في هذا الفن، قيل عنها لو جمعت لكونت موسوعات تضارع موسوعاته الشعرية[٩٤]. بيد أننا لم نقف على

مسميات تلك الموسوعات الموسيقية، التي يبدو أنها لم تخرج إلى النور بعد.

ولا يعنى ما ذكرناه بطبيعة الحال، أن خسرو كان الوحيد صاحب النبوغ وذيوع الصيت في هذه الفنون دون غيره من العلماء، ولكن لعل المصادر قد ضنت في الحديث عنهم خلال مدة بحثنا مكتفية بالحديث عن أشهرهم.

- أيضًا من العلماء الذين برزوا في التأليف في علم اللغة، إسحاق بن علي البخاري (ت ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، وكانت له منظومة ألفها بالعربية في الصرف[٩٥].
- كذلك من الأطباء المشهورين "حسام الدين الماريكلي"، الذي كان يدرس ويفيد ويداوي الناس بدار الملك دهلي في عهد السلطان بلبن[٩٦].

المبحث الخامس

دور السلطان بلبن في ترسيخ قواعد وتعاليم الإسلام بالهند

تتجلى عظمة السلطان "غياث الدين بلبن" في أنه حكم الدولة الإسلامية بالهند زهاء اثنتين وعشرين عامًا، ساس الناس فيها بالحزم والعدل والإنصاف والتمسك الشديد بآداب الإسلام وفضائله، لا يداهن في ذلك ولا يسامح أحدًا ولو كان من ذوى قرابته[٩٧]. فقد رُوى عنه أن ابنه بغراخان كان يتعاطى الخمر، فمنعه من ذلك، وقال له: "إذا رجعت إلى شرب الخمر مرة أخرى، سآخذ منك إقطاعك (ولايتك) وسأبدلك بإقطاع آخر، وستكون دائمًا في نظري ضعيفًا ذليلاً". ووعى بغراخان هذا الكلام جيدًا ووضعه نصب عينيه، واتخذ طريق الصلاح شعارًا له[٩٨].

كذلك نلمس من وصايا السلطان بلبن لعماله، ولا سيما أولاده، في الأقاليم الهندية التابعة لدولته مدى تشديده عليهم في التمسك بتعاليم الإسلام وإقامة حدوده وأوامره ونواهيه، وغير ذلك من وصايا إسلامية لازمة للحكم. وهذا مثال لبعض الوصايا من السلطان بلبن إلى ابنه الأكبر محمد عند تسليمه إمارة الملتان: "عندما تجلس على كرسي العرش، فلا تستهن بأمر الملك لأنه يعنى خلافة الله عز وجل، ولا تبدل عزة الأمر الجليل بالذل والفحش بارتكاب قبائح الأعمال"؛ "ألا تدع للسطوة والقهر سيطرة عليك، وتجنب أغراض نفسك، ولا تعمل إلا لله"؛ "ألا تتخاذل وتهمل أعداء الدين والفساق والظلمة"؛ "لا تهتم بالذين لا يخافون الله تعالى، واعلم أن صلاح الملك والدين في تجنب إبعاد هذه الطائفة"[٩٩]. وهذا قليل من كثير مما كان يتمتع به السلطان بلبن من خصال حسنة ألزم أولاده على التمسك بها، ودفع بنى قومه إلى التحلي بها، لأنه كان يرى أنه لابد للملك أن يؤدى فرائضه كالخليفة عمر بن الخطاب، وعمر بن عبدالعزيز[١٠٠]. ولعل ما سنورده أيضًا من خصال لهذا السلطان يزيد هذا الأمر وضوحًا. فقد كان السلطان بلبن يتردد إلى مجالس التذكير والوعظ ويقعد بها كأحاد الناس، ويداوم على الصلاة بالجماعة، والصيام فرضًا كان أو نافلة، ويداوم على صلاة الضحى والتهجد[١٠١].

ولما كان الأمن يمثل عنصرًا رئيسًا وأساسًا للحياة المطمئنة في البلاد، فإن السلطان بلبن نجح نجاحًا باهرًا في تلك السياسة وإشاعة الأمن داخل ربوع الهند، فقضى على الأشقياء

واللصوص وقطاع الطرق في أماكن كثيرة من دولته، ولم يكن يتردد في معاقبتهم بقسوة إذا ما اقتضى الأمر، بعدما روعوا الآمنين، وكثرت شكاوى الناس من سلبهم ونهبهم[١٠٢]. وقد أعقب بلبن هذا العمل الحضاري، بعمل آخر لا يقل رقى وتحضرًا عنه، إذ أنه بنى دارًا سماها دار الأمن، فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه، ومن دخلها خائفًا أمن، ومن دخلها وقد قتل أحدًا أرضى عنه أولياء المقتول، ومن دخلها من ذوي الجنايات: أرضى من يطلبه. وبتلك الدار دفن بعد وفاته[١٠٣].

الخاتمة:

لا شك أن "غياث الدين بلبن" بأفعاله الحسنة هذه، قد غرس قيمًا إسلامية رفيعة في المجتمع الهندي عامة، مسلمون وهندوس، ودلل على روح التسامح والعدالة. تلك القيم التي تجعل الرعية تنظر إلى سلطانها وقد تمسك بالشرع الحنيف وفرائضه، وبنشر مبادئه -ولا سيما أنه كان يلزم بها أولاده- نظرة ملؤها الاحترام والتقدير فتحتذى حذوه وترضى بحكمه. ولا يغيب عن أذهاننا أيضًا في هذا المجال، ما قام به السلطان بلبن من دور رائد في دفع جحافل المغول عن الهند، ووقايتها من شرورهم وآثامهم، ولعل ما مر بنا من تفصيل لذلك، يرينا إلى أي حد كانت التدابير التي اتخذها، والمجهودات العظيمة التي بذلها، قد أرغمت المغول في النهاية على ترك الهند لتنعم بالاستقرار والأمان.

أيضًا تلك السمة الفريدة التي امتاز بها السلطان بلبن وظل متمسكًا بها حتى وفاته، ولعلى لا أبالغ إذا قلت أنه تفرد بها وهي شدة ولائه للخلافة العباسية حتى بعد سقوطها على أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م إذ ظل ينقش اسم الخليفة المستعصم المقتول على النقود ويذكر اسمه في الخطبة من على المنابر. وحتى إن كان هذا العمل من قبل السلطان بلبن قد مثل تحديًّا لخاقان المغول في تلك المدة، إلا أنه دل على مدى تمسك المسلمين برموزهم واحترامهم لها فيهابهم عدوهم، لا سيما وأن ذلك الرمز هو خليفة المسلمين وإمامهم.

وبعد، فقد كانت تلك بعض النماذج للسلاطين الذين أرسوا دعائم قوية داخل المجتمع الهندي استمدت من روح الإسلام، فأعطت انطباعًا راسخًا دل على مدى التحضر الذي نعمت به الدولة الإسلامية بالهند خلال مدة حكمهم.

حواشي البحث

(١) ضبط الاسم مما ذكره ابن بطوطة في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب السفار" المعروف برحلة ابن بطوطة، تحقيق محمد عبدالمنعم العريان (دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج٢، ص٤٣٦. وكان يلقب بـ "ألغ خان"، انظر: منهاج الدين الجوزجاني، طبقات ناصري، ترجمة ملكة علي التركي (المركز القومي للترجمة بالقاهرة ، ٢٠١٢م)، ج٢، ص٦١.

(٢) الجوزجاني، طبقات ناصري، ج٢، ص٦١ -٦٢.

(٣) قد يكون ذلك سببا في ندرة المعلومات في المصادر عن مولد ونشأة هؤلاء المماليك نتيجة بيعهم وهم صغار عن طريق الأسر أو الخطف من بلادهم، فلا يُعلم الكثير من تفاصيل حياتهم، ومنها مولدهم ونشأتهم.

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام (دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م)، ص١.

(٥) نقلاً عن عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٠م)، ص١٠٤-١٠٥.

(٦) دهلي: قاعدة بلاد الهند وأعظم مدنها، كبيرة المساحة كثيرة العمارة، ويقال لها "دلي" بتشديد اللام وكسرها. وقد بُنيت في عهد أحد ملوك الهندوس، واسمه "وادى بته" الرجبوتي، سنة ٣٠٧هـ/٩١٨م. وسُميت "دهلي" لأن أرضها كانت لينة غير متماسكة، لأن "دهول" في اللغة الهندية تعنى التراب غير المتماسك. وقد تعاقب على حكمها عدد من ملوك الهندوس حتى فتحها قطب الدين أيبك، وصارت عاصمة الدولة الإسلامية بالهند. وفي أثناء الاحتلال الإنجليزي للهند حرفوا اسمها إلى "دلهي" فصارت تنطق بهذا أيضًا. ويُلاحظ أن مكانها تغير على مر الزمن، فقد قامت أولاً حول المكان الذي يشغله الآن "منار قطب" قريبًا من المطار، ثم أخذت تزحف نحو الشمال حتى صارت على شاطئ نهر "جمنا"، واقفر مكانها الأصلي. الندوي، عبدالحي الحسن، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (بيروت، ١٩٩٢م)، مج١، ص٧٦؛ عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام، ص١٠١، هامش١.

(٧) شمس الدين ألتمش: أحد أعظم سلاطين دولة المماليك الإسلامية بالهند، فقد تمكن من اعتلاء كرسي العرش في دهلي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م وأصبح الحاكم الفعلي لدولة المماليك بالهند. وينتسب ألتمش إلى عائلة مرموقة بتركستان، حيث كان أبوه ويدعى "إيلم خان" يحكم قبائل كثيرة بها. وكان ألتمش منذ حداثة سنه محل حسد إخوته، ونتيجة لذلك فقد أقصوه بعيدًا؛ حيث باعوه لأحد التجار الذي حمله بدوره إلى مدينة بخارى، وباعه. وأخذ ألتمش ينتقل من سيد إلى سيد حتى اشتراه قطب الدين أيبك اول سلاطين دولة المماليك الإسلامية بالهند، ورباه ثم زوجه بابنته. وأخذ يتدرج في المناصب حتى وصل إلى درجة "أمير الأمراء". ولما توفي السلطان أيبك، تمكن ألتمش من السلطنة وانفرد بها بعد إقصاء آرامشاه بن أيبك. منهاج الدين عثمان الجوزجاني، طبقات ناصري، ترجمة عفاف زيدان (المركز القومي للترجمة

بالقاهرة، ٢٠١٣م)، ج١، ص٦١٧–٦٢١ بتصرف؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ج٢، ص٤٣٣–٤٣٤ بتصرف. وقد اعتمدنا اسم "ألتمش" بناء على ما أورده الجوزجاني السالف الذكر، مع أن ابن بطوطة ضبطه "لَلْمِش". المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣٣.

(٨) الجوزجاني، طبقات ناصري، ج٢، ص٦٢؛ أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتها (مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت)، ج١، ص١٣٥.

(٩) تحفة النظار، ج٢، ص٤٣٧ -٤٣٦ بتصرف.

(١٠) نظام الدين الهروي، طبقات اكبري المنشور باسم "المسلمون في الهند"، وهو الاسم الذي اعتمدنا عليه في حواشي هذه الدراسة، ترجمة أحمد عبدالقادر الشاذلي (الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م)، ج١، ص٧٦.

(١١) عصام عبدالرؤوف، الدول الإسلامية المستقلة في الشرق (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م)، ص٣٦٦.

(١٢) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٣.

(١٣) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٧٨؛ محمود شاكر، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٧، ص٢٢٣.

(١٤) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٧٨.

(١٥) أحمد مختار العبادي، "أوجه الشبه بين سلاطين المماليك الترك في الهند وبين دولة المماليك الأولى في مصر"، المجلة التاريخية المصرية، مج١٢، (القاهرة، ١٩٦٤–١٩٦٥م)، ص١٢٤.

(١٦) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٣.

(١٧) الساداتي، المرجع نفسه، ج١، ص١٣٤.

(١٨) عصام الدين عبدالرؤوف، الدول الإسلامية المستقلة، ص٣٦٧.

(١٩) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٥.

(٢٠) الندوي، عبدالحي الحسن، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (بيروت، ١٩٩٢م)، مج١، ص١١٣.

(٢١) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٦.

(٢٢) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ج١، ص٨٢ -٨٣ بتصرف.

(٢٤) أحمد مختار العبادي، أوجه الشبه بين سلاطين المماليك، ص١٢٥.

(٢٥) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٣.

(٢٦) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٨.

(٢٧) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢٨) عادل محمد نجيب، مظاهر الحضارة الإسلامية في عصر سلاطين دهلي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب (جامعة القاهرة، ١٩٨٥م)، ص٥٣.

(٢٩) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٧.

(٣٠) أحمد مختار العبادي، أوجه الشبه بين سلاطين المماليك، ص١٢٥؛ عادل محمد نجيب، مظاهر الحضارة الإسلامية، ص٥٩.

(٣١) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٥.

(٣٢) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٩.

(٣٣) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٥، ٩٢.

(٣٤) الهروي، المصدر نفسه، ج١، ص٩٢؛ الندوي، الهند، ص٢٥٥؛ عصام عبدالرؤوف، الدول الإسلامية، ص٣٧١.

(٣٥) عادل محمد نجيب، مظاهر الحضارة الإسلامية، ص٩٥.

(٣٦) الندوي، الهند، ص٢٥٥؛ الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٤٠

(٣٧) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٩٢.

(٣٨) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٤١.

(٣٩) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٩٣ -٩٤؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٧، ص٢٢٤؛ أحمد مختار العبادي، أوجه الشبه بين سلاطين المماليك، ص١٢٦.

(٤٠) الندوي، الهند، ص١٨٤؛ العبادي، المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٤١) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٩٤ -٩٥. من الجدير بالذكر أن البنغال ظلت منذ ذلك الحين، حتى زهاء نصف قرن، تابعة لأسرة بلبن من أولاده وأحفاده، في حين لم يستطع باقي أفراد الأسرة الاحتفاظ بعرش السلطنة في دهلي، بعد وفاة زعيمها بلبن سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، سوى ثلاث سنوات، أي حتى سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. أنظر: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م)، ج٢، ص٦٠٣، ٦١٢-٦١٣.

(٤٢) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٩٥؛ الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٤١.

(٤٣) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٨ -١٣٩.

(٤٤) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج٢، ص٤٤٨؛ الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١٢٣-١٢٤.

(٤٥) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٩٩.

(٤٦) المصدر نفسه والجزء الصفحة.

(٤٧) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٤٣٦. وهذه الدار كان بلبن قد أعدها قبل وفاته لإنصاف المظلومين وقضاء حوائج الناس. انظر المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١١٣.

(٤٨) فؤاد عبدالمعطي، المغول في التاريخ (القاهرة، ١٩٧٥م)، ص٦٩؛ نعمان الطيب سليمان، المغول وغزواتهم في بلاد المسلمين (مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨م)، ص٦١.

(٤٩) عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م)، ج١، ص٣٢.

(٥٠) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص٣٠. الخليفة المستنصر بالله هو جعفر المنصور بن الظاهر

بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد، كانت خلافته سبع عشرة سنة وشهرًا تقريبًا. وكان حازمًا عادلاً، وفي أيامه عُمرت بغداد عمارة عظيمة، وبنى بها المدرسة المستنصرية، وتوفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م)، ج١، ص٤١٥.

(٥١) برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة سهيل زكار (دمشق، ١٩٨٢م)، ص١١٦.

(٥٢) وذلك سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م عندما أحياها السلطان الظاهر بيبرس في مصر، ومنذ ذلك الحين غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية حتى الفتح العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص٣٥٥ -٣٥٨.

(٥٣) أحمد مختار العبادي، أوجه الشبه بين دولة سلاطين المماليك الأتراك، ص١٢٧، هامش١.

(٥٤) محمد يوسف النجرامي، العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم (جامعة القاهرة، ١٩٧٥م)، ص١٥٧

(٥٥) سيأتي بيان ذلك بالتفصيل في علاقات بلبن بالمغول في حينه من هذا البحث.

(٥٦) محمد يوسف النجرامي، المرجع نفسه، ص١٥٩.

(٥٧) الندوي، الهند، ص٧٠، ٧٢، ١٠٤ بتصرف.

(٥٨) عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص١١٢.

(٥٩) عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص١١٢.

(٦٠) الهروي، المسلمون في الهند، جـ١، ص٧٩–٨٠؛ الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٤.

(٦١) الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٣.

(٦٢) عصام الدين عبدالرؤوف، الدول الإسلامية المستقلة، ص٣٧٠.

(٦٣) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص٣٢–٣٤.

(٦٤) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٥.

(٦٥) صحراء جوبي: تقع بهضبة منغوليا شمال الصين. الأطلس العربي (القاهرة، ط٣، ١٩٧٨م)، ص٥٤–٥٥.

(٦٦) فؤاد عبدالمعطي الصياد، المغول في التاريخ (القاهرة، ١٩٧٥م)، ص٤٦.

(٦٧) فؤاد عبدالمعطي، المغول، ص٥٣.

(٦٨) هذا هو الامتداد الطبيعي لمجاورة دولة المماليك بجزئها الشرقي من ناحية البنغال لحدود الصين. الأطلس العربي، ص٥٤–٥٥.

(٦٩) عن أنباء سقوط الخلافة العباسية، وما أحدثه المغول من تدمير ببغداد وقتلهم الخليفة المستعصم. أنظر: ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، دراسة وتحقيق سمير طبارة (بيروت، ١٩٩٩م)، ص٢٣٨–٢٣٩؛ ابن العبري، غريغيريوس الملطي، تاريخ مختصر الدول (دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠١م)، ص٢٧٠–٢٧٢؛ الذهبي، محمد بن أحمد، دول الإسلام، تحقيق محمد فهيم شلتوت،

محمد مصطفي إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م)، ج٢، ص١٥٩-١٦٠.

(٧٠) انظر ما سبق تناوله عن علاقة السلطان بلبن مع الخلافة العباسية.

(٧١) سيد مقبول أحمد، العلاقات العربية الهندية، تعريب نيقولا زيادة (بيروت، ١٩٧٤م)، ص١٠٨.

(٧٢) كان المغول يعنون برياضة الصيد ومبارياتها عناية خاصة كلما فرغوا من القتال، إذ كانوا يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد ودعوا لحمل السلاح وخوض غمار الحروب، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما سيفعلونه في وقت الحرب من حفظ للنظام وتدريب الجند واختبارهم. كما تُراعى أيضًا في حلبات الصيد جميع الأوامر الخاصة بالنظام الحربي بنفس الدقة التي تراعى بها إبان الحرب. فؤاد عبدالمعطي، المغول، ص٣٤٢-٣٤٣.

(٧٣) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٦

(٧٤) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ص٤٨١.

(٧٥) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٧، ٩٢؛ الساداتي، تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٨.

(٧٦) الهروي، المصدر نفسه، ج١، ص٨٥.

(٧٧) سبق تفصيل ذلك في هذا البحث.

(٧٨) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٩١-٩٥ بتصرف.

(٧٩) عصام الدين عبدالرؤوف، الدول الإسلامية، ص٣٧١.

(٨٠) عصام الدين عبدالرؤوف، الدول الإسلامية، ص٣٧١.

(٨١) الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١٢٣.

(٨٢) عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام، ص١١٣.

(٨٣) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٨٤.

(٨٤) الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١١٣ -١١٤ بتصرف.

(٨٥) الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص٩٩، ١٠١.

(٨٦) انظر الندوي، نزهة الخواطر، ج٢، ص١١٣؛ عصام الدين عبدالرؤوف، بلاد الهند، ص٢٤٠.

(٨٧) يونس السامرائي، علماء العرب، ص٢٣.

(٨٨) يونس السامرائي، علماء العرب، ص٢١.

(٨٩) الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١١٧.

(٩٠) الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١٢٧.

(٩١) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص١٠٢، ٨٩؛ الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١٥٦-١٥٨.

(٩٢) يونس السامرائي، علماء العرب، ص١٣.

(٩٣) المرجع نفسه، ج١، ص٩٤.

(٩٤) المرجع نفسه، ج١، ص١١٣.

(٩٥) الندوي، المصدر نفسه، ج١، ص١٥٦ -١٥٧.

(٩٦) الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١٥٧؛ عصام الدين عبدالرؤوف، بلاد الهند، ص٢٢٤–٢٢٥.

(٩٧) الهروي، المسلمون في الهند، ج١، ص٩١ –٩٢.

(٩٨) المصدر نفسه، ج١، ص٩٠ -٩١.

(٩٩) محمد يوسف النجرامي، العلاقات السياسية، ص١٥٦.

(١٠٠) محمد يوسف النجرامي، العلاقات السياسية، ص١٥٦.

(١٠١) الندوي، نزهة الخواطر، ج١، ص١١٣.

(١٠٢) عادل محمد نجيب، مظاهر الحضارة الإسلامية، ص٥٣.

(١٠٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج٢، ص ٤٣٦.